

لماذا هذا الكتاب؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم والصلاة والسلام على النبي الأكرم، الذي بدأت رسالته بفريضة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) فكانت الترويج للرسالات والنبوات التي بدأت يوم علم الله آدم الأساء كلها..

وبعد

فمع أنوار فجر العام الهجري ١٤١٨ هـ، وحلول ذكرى أربعة عشر قرناً على الفتح الإسلامي لمصر الذي بدأ بصلاة أول يوم عيد للأضحى على أرض «العريش» سنة ١٨ هـ سنة ٦٣٩ م تمتيت على أمتي - بمصر - وكل بقاع عالم الإسلام؛ أن تحتفل بهذه الذكرى.. ذكرى الفتح الذي دخلت به مصر في دين الله، وفي الشريعة الخاتمة المصدقة بكل الكتب، والوارثة لجميع الرسالات، والمهيمنة - بالإضافة والتصحيح - على سائر الشرائع الإلهية التي نزل بها الوحي الأمين على قلوب الأنبياء والمرسلين - عليهم صلوات الله أجمعين. تمتيت أن تحتفل الأمة - كل الأمة - بهذه الذكرى؛ لأن هذا الفتح الإسلامي لمصر قد أحيا كنانة الله في أرضه، وأخرجها من قهر حضاري - إغريقي / روماني / بيزنطي - دام عشرة قرون، فأحيت الحضارة على امتداد الأمة وعبر تاريخها.

وتجسيداً لهذه الأمانة قمت سنة ١٤١٨ بإلقاء عدد من المحاضرات حول الفتح الإسلامي لمصر، وأبعاده ودلالاته وآثاره ثم كتبت دراسة موجزة جعلت عنوانها: [عندما دخلت مصر في دين الله]، ونشرتها في عدد من الصحف السيارة - منها «الوفد» و«صوت الأزهر»، ثم أخرجتها في كتاب صغير^(١).

وكان أمني، وكانت أمني، أن تكون هذه المحاضرات وهذه الدراسة - عن الفتح الإسلامي لمصر - دعوة لتحتفل الأمة بهذه الذكرى احتفالاً كبيراً، يمتد سنوات، تعقد فيها المؤتمرات والمهرجانات والفعاليات الثقافية والعلمية والدينية؛ التي تمثل دفعة في ميادين الإحياء الحضاري، الذي تحتاجه الأمة؛ كي تواجه التحديات الشرسة التي تسعى كي تقطع عليها طريق التقدم والتحرر والنهوض.

(١) نهضة مصر - سلسلة «في التنوير الإسلامي» سنة ١٩٩٧ م.

لكن الذي حدث - يومئذ - كان مفاجئاً لي بل ومذهلاً، ليس لأن هذه الدعوة لم تجد سميعاً ولا ملبياً، وإنما لكم الهجمات والافتراءات والشبهات التي انهارت على الفتح الإسلامي لمصر، والتي تمثلت في كتب صدرت، ومقالات كتبت، تشكك في الهوية الإسلامية لمصر، حتى لتعتبر هذا الفتح الإسلامي نكبة مثلت التدمير لهذا البلد الأمين!!.

ومع أنني قد كتبت كثيراً في الدفاع عن الهوية الإسلامية العربية لمصر، وخضت الكثير من المعارك الفكرية ضد النزعات الطائفية والعنصرية التي عمل أصحابها على انتزاع مصر من هويتها العربية الإسلامية، فلقد ظل القيام بعمل فكري يبذل شبهاً الأكاذيب التي انتشرت ضد الفتح الإسلامي لمصر، وضد هويتها العربية الإسلامية. ظل القيام بإنجاز هذا العمل الفكري في مقدمة مفردات المشروع الفكري الذي وهبته ما وهبني الله من حياة وجهد واجتهاد.

(١) انظرها في طبعة دار السلام القاهرة.

صحيح أن التوفيق الإلهي قد جعل هذا الفن من فنون التأليف - عن الحقائق والشبهات - معلماً من معالم المشروع الفكري الذي توفرت على إخراجه فتوالت كتيبي:

- ١- [حقائق وشبهات حول القرآن الكريم].
 - ٢- [حقائق وشبهات حول السنة النبوية].
 - ٣- [حقائق وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم].
 - ٤- [حقائق وشبهات حول السباحة الإسلامية وحقوق الإنسان].
 - ٥- [حقائق وشبهات حول مكانة المرأة في الإسلام].
 - ٦- [حقائق وشبهات حول الحرب الدينية والجهاد والقتال والإرهاب].
 - ٧- [حقائق وشبهات حول السنة والشيعة].
 - ٨- [حقائق وشبهات حول الوطنية والقومية والجامعة الإسلامية^(١)].
- إلا أن إبراز حقائق الفتح الإسلامي لمصر، وتبديد الشبهات التي فاضت أمواجها حول هذا الحدث التاريخي والحضاري ظل الواجب الذي ينتظر الأداء، والمهمة التي تحفز العقل على تهيئة أسباب الإنجاز.

ولأني أريد لهذا العمل الفكري أن يكون حاسماً للجدل الذي دار حول هذا الحدث، فلقد قضيت سنوات أغوص في المصادر الأصلية، والمراجع المعتبرة التي تناولت الفتح الإسلامي لمصر- عربية وغير عربية- وأعائش الكتابات التي حاول أصحابها إهالة ركام الشبهات والافتراءات على هذا الفتح؛ لتكون المادة الفكرية «شهادات» أهل الذكر حول هذا الموضوع، وحتى يكون هذا الكتاب أشبه ما يكون «بالوثائق» التي تقدم الحقائق وتدحض الشبهات، أكثر من كونه وجهة نظر لكاتب منحاز للهوية العربية الإسلامية التي أثمرتها الفتوحات الإسلامية.. والتي نقلت الشرق والحضارة والثقافة والتاريخ إلى طور جديد.

نعم تلك هي طبيعة هذا الكتاب الذي أقدم بين يديه.. «وثائق شاهدة» و«شهادات موثقة» على الفتح الإسلامي لمصر- الذي هو نموذج مجسد لفتوحات الإسلام، التي حررت الشرق من غزوة القهر الحضاري: الإغريقي/ الروماني/ البيزنطي؛ التي دامت عشرة قرون ومن الاستبداد العنصري والطبقي للكسروية الفارسية، التي نافست القيصرية الرومانية في استعباد الشرق وقهر الملكات والطاقات لشعوبه طوال تلك القرون.

ومع هذه «الحقائق الموثقة» وبها يكون التبريد «الموثق» للشبهات والافتراءات التي انهالت على هذا الإنجاز التاريخي العظيم.

تلك هي مهمة هذا الكتاب؛ الذي نمهد لفصوله بالدراسة التي كتبناها في ذكرى أربعة عشر قرناً على الفتح الإسلامي لمصر سنة ١٤١٨ هـ، والتي جعلنا عنوانها: [عندما دخلت مصر في دين الله].

عندما دخلت مصر في دين الله

فجر التوحيد والنبوات

في مصر قبل الإسلام

بآدم - عليه السلام - بدأت مسيرة الإنسان على هذا الكوكب الذي نعيش فيه؛ فهو أبو البشرية، الذي خلقه الله وسواه ونفخ فيه من روحه.

ولطفاً من الخالق - سبحانه وتعالى - بخلقه؛ اقترنت الرعاية الإلهية لهذا الإنسان بلحظات الخلق والاستخلاف والأمر والنهي والتكليف:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّخِذُ أُنثِيَّتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (البقرة: ٣٠ - ٣٣).

وبوحي الله لآدم - عليه السلام - بدأت النبوة والرسالة في المسيرة الإنسانية، مقترنة بلحظة استخلاف الله لهذا الإنسان، وتكليفه إياه.

وإذا كان آدم هو أبو البشر، وأول الأنبياء، وفتحة المرسلين؛ فإن مشيئة الله قد اصطفت مصر - كنانة الله في أرضه - لتبدأ على أرضها هداية النبوة والرسالة منذ عصر وحياة آدم - عليه السلام -؛ ففي ربوعها كانت بعثة نبي الله إدريس - عليه السلام - الذي مثل في سلسلة النبوة، ثالث الأنبياء، بعد آدم وشيث، والذي عاش وبعث في حياة آدم عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وعن إدريس ونبوته تحدث القرآن الكريم فقال:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا

﴿٥٧﴾﴾ (مريم: ٥٦ - ٥٧).

وعن ترتيبه وسبقه على درب النبوة والرسالة، ومن ثم سبق مصر على درب الاصطفاء هذا؛ يتحدث الذين كتبوا قصص الأنبياء فيقول الحافظ ابن كثير (٧٠١-٧٧٤هـ-١٣٠٢-١٣٧٣م) - (في البداية والنهاية) - عن إدريس، عليه السلام: «إنه كان أول بني آدم أعطي النبوة بعد جده آدم وبعد شيث، عليهما السلام».

وعن معاصرته لآدم، يقول ابن إسحاق (١٥١هـ-٧٦٨م): «إنه أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثمان سنين»^(١).

ومعنى ذلك، أن مصر قد دخلت في دين الله، وعرفت التوحيد، وحياً إلهياً - لا وضعاً بشرياً وإفرازاً إنسانياً - وتلقت علم النبوة، واحتضنت الرسالة السماوية منذ فجر الإنسانية، وفي حياة أبي البشر آدم - عليه السلام -.

بل إن ما بقي لنا من قصص نبي الله ورسول مصر إدريس - عليه السلام - ليوحى بأن هذا العمق الحضاري والسبق في التمدن، اللذين تميزت بهما مصر قبل سائر الحضارات؛ إنما كانت لهما عروة وثقى بعلم النبوة الذي جاءها به رسولها إدريس - عليه السلام -.

فمنذ فجر الإنسانية، تميزت الرسالة التي شرفت بها مصر، بعلوم: الحكمة، والتمدن، والسياسة المدنية، وعلوم الكون، الأرضية منها والسماوية، إلى جانب علوم الشرع والدين حتى ليتحدث الذين أرخوا للحكمة والحكماء - ومنهم القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (٥٦٨-٦٤٦هـ-١١٧٢م) -

صاحب كتاب (تاريخ الحكماء) - وابن جليجل - داود بن حسان (بعد ٣٧٢هـ-٩٨٢م) - صاحب كتاب (طبقات الأطباء والحكماء) - عن هذه الأبعاد العلمية والحضارية في رسالة رسول الله ونبي الله إدريس فيقولون: «إنه أقام - ومن معه - بمصر، يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله عز وجل

- ورسم لهم تمدين المدن، وجمع له طالبي العلم بكل مدينة، فعرفهم السياسة المدنية، وقرر لهم قواعدها وعلمهم العلوم. وهو أول من استخرج الحكمة، وعلم النجوم، فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه، ونقط اجتماع الكواكب فيه، وأفهمه عدد السنين والحساب»^(١).

(١) الشيخ عبد الوهاب النجار

(قصص الأنبياء) ص ٢٤،

طبعة بيروت - الثالثة - دار

إحياء التراث العربي.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥، ٢٦

نقلًا عن (أخبار الحكماء)

للقفطي.. وانظر كذلك

(طبقات الأطباء والحكماء)

لابن جليجل ص ٥، ٦.

تحقيق: فؤاد سيد. طبعة

القاهرة سنة ١٩٥٥م.

ففي مصر بدأت بواكير التوحيد في الألوهية، وحيًا سماويًا، منذ عصر آدم - عليه السلام - وكما علّم الله آدم الأسماء كلها؛ أوحى - سبحانه وتعالى - إلى نبي مصر إدريس علوم الحكمة والتمدن والسياسة المدنية وحقائق العلوم الطبيعية، فعلمها للمصريين؛ لتتواصل ومضات التوحيد الديني مع عبقرية العلوم الحضارية على أرض مصر، جيلًا بعد جيل - صعودًا تارة وهبوطًا تارة أخرى - منذ فجر الإنسانية وإلى أن دخل أهلها - بالفتح الإسلامي لأرضها - في دين الله أفواجًا، وذلك عندما اكتمل وتم دين الله الواحد بنبوة ورسالة وشرعة محمد بن عبد الله، عليه وعلى كل الأنبياء والرسل أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وعبر هذا التاريخ المصري - الذي هو أطول وأعرق ما حفظت ذاكرة الإنسانية من التاريخ - ظلت ومضات التوحيد الديني في مصر شاهدة على انتهاء المصريين إلى دين الله، ولقد تمثل ذلك فيمن زارها وعاش فيها من الأنبياء والمرسلين وفيمن ولد فيها ونشأ وبعث منهم - ممن قص الله علينا قصصهم في القرآن الكريم - وأيضًا في حكمائها، الذين جددوا الدعوة إلى التوحيد، ورفعوا راياته في مواجهة طوارئ الوثنية - والذين قد يكونون أنبياء ورسلاً ممن لم يرد ذكر لأسمائهم في القرآن الكريم:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّحِشِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۖ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾
(النساء: ١٦٣ - ١٦٥).

فإلى مصر رحل إبراهيم الخليل - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء - وكان ذلك في عصر الهكسوس (١٦٧٥ - ١٥٨٠ ق.م)

- ومن بنات مصر - هاجر، عليها السلام - أنجب نبي الله ورسوله إسماعيل، عليه السلام، الذي هو أبو العرب العدنانيين، فبمصر ارتبط أبو الأنبياء وأحد أولي العزم من الرسل والخليل الذي وصفه القرآن «بالصديق» ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) ﴿٤١﴾ (مريم: ٤١) ورفع لواء التوحيد في مواجهة الشرك وعبادة الأصنام.

وإلى مصر جاء يوسف - عليه السلام - وفيها أوحى إليه ربه، وبها بلغ الرسالة وعمل وساس وأصلح وكان ذلك على عهد الأسرة الخامسة عشرة - التي يبدأ حكمها سنة ١٦٧٥ ق.م.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (يوسف: ٤٦ - ٤٩) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِدَهْنٍ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (يوسف: ٥٤ - ٥٦).

وباستدعاء من يوسف، جاء إلى مصر وعاش فيها، وعبد الله ودعا إليه نبي الله يعقوب، وعدد من بنيه.

وفي مصر ارتفعت دعوة التوحيد في مناجاة «أمنتب الثالث» (١٣٩٧ - ١٣٦٠ ق.م) الله الواحد الأحد:

(أيها الموجد دون أن توجد،

مصور دون أن تُصور، هادي الملايين إلى السبل،

الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر).

وفي رسالة التوحيد التي دعا إليها «أمنحسب الرابع.. إخناتون (١٣٧٠ - ١٣٤٩ ق.م) :-

(أنت إله، يا أوحى، ولا شبيه لك.

لقد خلقت الأرض حسبها تهوى، أنت وحدك.

خلقتها ولا شريك لك

أنت خالق الجرثومة في المرأة.

والذي يذراً من البذرة أناساً.

وجاعل الولد يعيش في بطن أمه،

مهدتاً إياه حتى لا يبكي،

ومرضعاً إياه حتى في الرحم.

وأنت معطي النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقتة،

حينما ينزل من الرحم في يوم ولادته،

وأنت تفتح فمه تماماً،

وتمنحه ضروريات الحياة.)

● وعند رمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق.م) - الذي أخذ العلم والحكمة والأخلاق من تراث نبي الله إدريس، عليه السلام.

● وفي مصر ولد ونشأ وتعلم نبي الله موسى وأخوه هارون، عليهما السلام وأوحى الله إليهم، وأنزل عليهم التوراة والألواح - (حوالي ١٢٠٠ ق.م) - بالهبروغليفية.. لغة المصريين - فجاءت حرية التوحيد عبودية الفرعونية على ضفاف وادي النيل؛

● ليتجدد ويسطع إشعاع التوحيد عند رمسيس الثالث - الأكبر - (١١٩٢ - ١١٦٠ ق.م)، الذي قال - عندما احتدم القتال بينه وبين الوثنيين في معركة «قادش» :-

(رأيت الله في المعركة.

كان أقرب إلي من جنودي.

هو الذي نصرني).

● حتى لقد غدت شريعة السماء وعقيدة التوحيد روحاً سارية في الثقافة المصرية، تغلب «غش الشرك والوثنية» عبر التاريخ المصري الطويل، فتعكسها وتجسدها شهادة المصري، يوم الحساب، بين يدي الواحد الأحد - كما جاء في (متون الأهرام) :-

(أنا لم أشرك بالإله.
 أنا لم أعقّ والديّ.
 أنا لم ألوّث ماء النيل.
 أنا لم أصد الماء في موسم جريانه،
 ولم أقم سدّاً في مجراه.
 أنا لم أنقص القياس.
 ولم أطفف الميزان.
 أنا لم أطرّد الماشية من مراعيها.
 أنا لم أتسبب في بكاء أحد.
 أنا لم أحرم إنساناً من حق له.
 أنا لم أختطف اللبن من فم الرضيع.
 أنا لم أطفئ شعلة في وقت الحاجة إليها.
 أنا لم أعترض على إرادة الله..)

● وإلى مصر، لجأ المسيح عيسى ابن مريم، مع أمه - سيدة نساء العالمين - طلباً للأمن، ونجاة من طلب «هيرودس» (٤ ق.م - ٣٩م) - الذي أراد أن يقتله - وفي مصر، وعلى إحدى رباهما، وجدوا الأمن والقرار ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (المؤمنون: ٥٠).

وعندما جدد المسيح رسالة التوحيد، وأعاد الروح إلى الشريعة - بعد أن تحول التوحيد إلى «وثنية.. ومادية» على يد اليهود - احتضنت مصر على الفور دين التوحيد، الذي بشر به عيسى عليه السلام.

● فلما انحرفت الدولة البيزنطية - والمجامع التي انعقدت في المدن البيزنطية - «مجمع نيقية سنة ٣٢٥» و«مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١» بتوحيد النصرانية إلى «التثليث»؛ خاضت مصر معركة الدفاع عن التوحيد وذلك عندما رفعت «الأريوسية» نسبة إلى «أريوس» - أسقف الإسكندرية (٢٥٦ - ٣٣٦م) - رفعت لواء التوحيد في الألوهية، وذلك عندما تمسكت بأن الله جوهر أزلي أحد، لم يلد

ولم يولد، وكل ما سواه مخلوق، حتى «الكلمة» فإنها، كغيرها من المخلوقات، مخلوقة من لا شيء. وأن المسيح لم يكن قبل أن يولد وأن الله قد نجاه من الصלב - الذي وقع على الشبيه -.

ولقد حفظت مصر كل هذا الفكر التوحيدي، حتى بعد أن طغت عقائد قانون الإيمان البيزنطي على أغلب كنائس النصرانية، فضمت «مخطوطات نجع حمادي» - التي اكتشفت سنة ١٩٤٧م - أقدم الأناجيل التي حفظت نقاء التوحيد النصراني - «إنجيل توماس» و«إنجيل مريم المجدلية» و«إنجيل فيليب» و«إنجيل بطرس» و«إنجيل المصريين» - وغيرها - وفيها ثلاثة وخمسون نصًّا، تقع في ١١٥٣ صفحة، جمعت في ثلاثة عشر مجلدًا تجسد شهادة التاريخ على ولاء المصريين لعقيدة التوحيد، كما مثلتها النبوات والرسالات السماوية التي تعاقبت على ضفاف النيل.

وإذا كانت هذه الأناجيل قد نجت من الدمار الذي أصاب به البيزنطيون تراث التوحيد النصراني، عندما أحرقوا مكتبة معبد «سرابيوم» - بالإسكندرية - وغالبية مخطوطات مكتبة الإسكندرية، وأغلقوا أبوابها، بعد قتل آخر عميد لها؛ فإن بقاء هذه الأناجيل - التي سبق تاريخ تدوينها تاريخ تدوين الأناجيل المشهورة - متى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا - بعشرين عامًا - قد فتح الباب لإعادة كتابة هذا التاريخ، الذي يتميز فيه دور مصر - صاحبة أول كنيسة نصرانية - على درب التوحيد الديني، منذ عصر آدم - ونبي مصر إدريس - وحتى رسالة المسيح، عليهم جميعًا الصلاة والسلام^(١).

(١) انظر في حقائق هذا التاريخ الديني لمصر: (قصص الأنبياء) ص ٨٤ - ٩٢، ١٢٠ - ١٤٤، ١٥٥ - ٣٠٢، ٣٨٦. ورفاعة الطهطاوي (الأعمال الكاملة) ج ٣ ص ٨٠. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م. ود. عبد المنعم أبو بكر (إخناتون) ص ٩٧، ٩٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م. ود. فؤاد حسين علي (التوراة الهيروغليفية) طبعة القاهرة دار الكتاب العربي. وفؤاد أفرام البستاني (دائرة المعارف) المجلد الأول. طبعة بيروت سنة ١٩٥٦م. ود. نعمات أحمد فؤاد، صحيفة (الأهرام) في ٣٠ / ١٠ / ١٩٩٦م. و(الموسوعة الأثرية العالمية) - إشراف ليونارد كوتريل - ترجمة: د. محمد عبد القادر محمد، د. زكي إسكندر. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م. ود. أحمد عثمان «مخطوطات نجع حمادي» - أعضاء جديدة على تاريخ المسيحية» مجلة (الهلal) عدد يونيه سنة ١٩٩٥م.

مصر تحت القهر الديني والحضاري

على امتداد نحو ألف سنة - ما بين غزو الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م) لمصر (٣٣٢ ق.م) والفتح الإسلامي لها (٢٠ هـ - ٦٤٠ م) - تعرضت مصر لمحنة عظيمة وقهر شديد شمل جميع ميادين الدنيا والدين!.

● فعاصمتها «منف» التي كانت رمزاً لوحدها واستقلالها وعزتها، منذ أن بناها الملك «مينا» (الألف الرابع قبل الميلاد) - بعد صراع مع الطبيعة حولت فيه مصر مجرى النيل العظيم، قبل الميلاد بنحو ٣٤٠٠ عام. هذه العاصمة - التي ارتبطت بهوية مصر، ورمزت لاستقلالها - أهملها الغزاة الإغريق.. وبنى الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق.م؛ لتكون العاصمة الأجنبية الاستعمارية لمصر المستعمرة!.. ولقد سار الإغريق في هذا الأمر على درب الغزاة الهكسوس (١٦٧٥ - ١٥٨٠ ق.م) الذين اتخذوا لاستعمارهم عاصمة ترمز للاحتلال والاعتصاب - هي مدينة «أوريس» - وأهملوا العاصمة الوطنية لمصر والمصريين.

● والحضارة المصرية القديمة، ذات الطابع الشرقي، التي جمعت ما بين الدين والدنيا، وزاوجت بين العلوم النظرية والعملية، وأخت بين تمدن الواقع وتهذيب النفس، وقدمت العمل اليدوي والذهني جميعاً، وعرفت «دين - الحكمة» و«الحكمة - المدينة» منذ نبوة إدريس - عليه السلام - في فجر الإنسانية؛ هذه الحضارة قهرتها وطوت صفحتها الحضارة الإغريقية، في صورتها الهيلينية، تلك التي افتقدت ذلك التوازن الذي تميزت به الحضارة المصرية الشرقية.

● واللغة المصرية، تلك التي ارتفعت عن أن تكون مجرد أداة تعبير وتخطيب، وذاكرة الأمة، والحافظة لتراثها الأغني، ارتفعت إلى حيث تقدّست - في إحدى صورها - عندما ارتبطت بالدين وكهنته وعلمائه. هذه اللغة المصرية زاحتها اللغة اليونانية الغازية فطردتها من الساحة، حتى غدت عملة ليس لها رواج، فطويت صفحة أبجديتها الخاصة لحساب الأبجدية اليونانية، واضطر

«الكتبة المصريون، منذ حكم الملوك البطالمة الإغريق؛ إلى استعمال الحروف اليونانية لكتابة لغتهم المصرية ولم يبق من حروف اللغة المصرية إلا سبعة أحرف لم يجدوا لها نظيرًا في الأحرف اليونانية» بل وتجاوزت الهزيمة ميدان الحروف إلى ميادين القواعد والكلمات والمصطلحات!^(١).

● والدين، الذي هو أعز ما يُطلب، وأعلى ما يُملك، وأعظم نعم الله على الإنسان والذي ارتبط، في مصر، بفجر الإنسانية، وعراقة الحضارة - منذ عصر آدم عليه السلام، في رسالة إدريس عليه السلام - هذا الدين، الذي استمرت إشعاعات ومضات التوحيد فيه مضيئة ومتواصلة، تغالب غبش الوثنية وعدوان الشرك على مر تاريخ المصريين، والذي جعل المصريين، بقيادة «جماعة العارفين» من أسبق الشعوب إلى احتضان النصرانية في صورتها النقية التوحيدية. هذا الدين قد تعرض إلى القهر البيزنطي الذي سالت فيه الدماء أنهارًا، حدث ذلك عندما كان الرومان المستعمرون لمصر وثنيين، حتى لقد أصبح هذا القهر الوثني للنصرانية المصرية «إبادة» قادها الإمبراطور الروماني «دقلديانوس» (٢٨٤ - ٣٥٠م)، الذي أرخ المصريون بعهدده عندما أطلقوا عليه «عصر الشهداء»!.

بل إن هذا القهر الديني، الذي مارسه البيزنطيون ضد النصرانية المصرية، لم يتوقف باعتناقهم للنصرانية - التي يتدين بها المصريون - فلقد طوعوا النصرانية لحضارتهم الإغريقية فاختلقت «نصرانية بولس» عن «نصرانية المسيح»!. وبعبارة إمام المعتزلة قاضي القضاء عبد الجبار بن أحمد الهمداني (١٥٤هـ - ١٠٢٤): «فإن النصرانية عندما دخلت روما لم تنتصر روما، ولكن النصرانية هي التي تروّمت»!.

فاستمر اضطهاد كنائس روما والمجامع البيزنطية - التي استبدلت التثليث بالتوحيد النصراني - استمرار اضطهادها للنصرانية المصرية الموحدة، حتى اضطُر المصريون إلى دفن أناجيل التوحيد - داخل «زلعة» - في مقابرهم «بنجع حمادي»!.

وحتى بعد أن قبلت الكنيسة المصرية وتبنت التثليث - الذي فرضه قانون الإيمان البيزنطي على كل الكنائس، منذ مجمع

(١) د. أحمد عثمان. مجلة (الهلال)
عدد يونيه سنة ١٩٩٥

القسطنطينية سنة ٣٨١ م - ظلت المقاومة المصرية لمذهب بيزنطة ملحوظة، تثير حقد البيزنطيين؛ فلقد ذهب الكنيسة المصرية مذهباً متميزاً في طبيعة المسيح، وجعلت التراث المصري القديم - في قصة إيزيس وحورس وأوزوريس - منطلقاً لتمييزها في التثليث، واتخذت من «مفتاح الحياة» - المصري القديم - رمزاً يشبه الصليب، لكنه ليس هو في صورته البيزنطية! وبنت كنائسها وفق المعمار الفرعوني، لا البيزنطي. ووظفت هذا التمايز في النسق القومي المتميز والمقاوم للقهر الحضاري والقومي والديني الذي يمارسه البيزنطيون إزاء المصريين. الأمر الذي أدام الاضطهاد البيزنطي لمصر والمصريين في ظل «الجامع النصراني» كما كان حاله في «ظل التمايز الوثني - النصراني»!.. فسار الإمبراطور الروماني «جستينيان الأول» (٥٢٧ - ٥٦٥ م) على درب «دقلديانوس»، فقتل ٢٠٠,٠٠٠ قبطياً في الإسكندرية وحدها، ومن نجا من القتل هرب إلى الصحراء حتى لقد انسحبت النصرانية المصرية من الحياة المدنية إلى المغارات والكهوف في مفازل الصحاري المصرية، مخلفة حتى كنائسها التي اغتصبها البيزنطيون!. الأمر الذي جعل مصر - الوطن والدولة والسيادة واللغة والدين والحضارة - عندما ظهر الإسلام (سنة ٦١٠ م) «فراعاً حضارياً» بل «موأناً حضارياً» - إذا جاز التعبير - قد قهر الرومان فيها أغلب سمات وقسمات «الانتفاء» التي ميزت المصريين عبر تاريخهم العريق فكان هذا «الفراغ الحضاري» هو العامل الأول والسر الأعظم وراء انخراط مصر في الدولة الإسلامية، ثم في الدين الإسلامي واللغة العربية، والحضارة الإسلامية على نحو من العمق والشمول نادر الحدوث في غيرها من الأقطار التي فتحها الإسلام.

فلم تقف مصر الإسلامية عند حدود الانتفاء للإسلام كدين ودولة، وإنما تبوأ مكانتها الريادية، حتى لكأنها هي صاحبة هذا الدين، والأمانة عليه، والحارسة له فكانت دولتها هي الحامية لدولة الإسلام وكانت عربيتها - حتى في لهجتها العامية - الأقرب إلى لغة

القرآن، وكان اعتدالها في التدين هو الأقرب إلى وسطية الإسلام وكان إبداعها المتميز في مختلف العلوم الإسلامية، الشرعية منها والمدنية، آية على أنها قد «عاشت» الإسلام، واتخذته «رسالتها»، ديناً ودولة، ولغة وثقافة، وعلماً وحضارة، وقومية وعزة، بكل ما يعنيه ذلك في سائر ميادين العلم والعمل والإبداع والانتماء. لقد جاءها الإسلام وهي «فراغ وموات حضاري»، فملاً الإسلام هذا الفراغ وأحى هذا الموات.

وبذلك ولذلك استعادت مصر الإسلامية «عافيتها الحضارية»، عندما دخلت في الإسلام، الذي هو تمام الدين الإلهي الواحد، الذي عرفته وانتمت إليه منذ فجر الإنسانية، عندما استجابت إلى دعوة نبي الله ورسوله إدريس - عليه السلام -.

لقد وجدت في شريعة محمد ﷺ كمال واكتمال توحيد إدريس - ومن سار على دربه من أنبيائها وحكمائها - ووجدت في دولة الإسلام التحرير من قهر الرومان البيزنطيين.

الفتح التحريري لمصر بالإسلام

ظهر الإسلام (سنة ٦١٠) والشرق واقع في قبضة الاستعمار والهيمنة اللتين مارستهما قوى نظام عالم ذلك التاريخ: الفرس الساسانيون، والروم البيزنطيون.

● فالفرس فرضوا سلطانهم وهيمنتهم على مشرق البلاد العربية، العراق والخليج، حتى لقد بنوا «إيوانهم» في «المدائن» العربية، واستلحقوا العرب المناذرة أتباعاً ووقوداً في صراعهم الطويل مع الروم البيزنطيين.

● والروم البيزنطيون ورثوا استعمار الشام ومصر وشمال إفريقيا، منذ غزوة الإسكندر الأكبر أي قبل نحو من ألف عام واستلحقوا عرب الشام - الغساسنة - أتباعاً ووقوداً في حروبهم مع الفرس بل وأوعزوا إلى الحبشة، التي احتلت اليمن، لتزيل استقلال وسط شبه الجزيرة العربية، وتهدم الكعبة والبيت العتيق - الذي ظل وحيداً فريداً «حرّاً.. عتيقاً» في شرق ذلك التاريخ!

لكن إرادة الله - سبحانه وتعالى - قد شاءت أن يكون ظهور الإسلام الدين تحولاً حضارياً، يزيح هيمنة الفرس والروم عن الشرق، ويحرر شعوبه المستعبدة، ويغير مجرى التاريخ.

● ففي ذات العام الذي وُلد فيه رسول الإسلام - محمد بن عبد الله ﷺ (سنة ٥٧١) - ينهزم الأحباش وقائدهم أبرهة في غزوة الفيل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (١) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ (٢) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (٣) ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ (٤) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (٥) ﴿(الفيل: ١-٥).. فبدأ الإعجاز الإلهي مقدمات التحولات التي ستغير قيادة الحضارة ومجرى التاريخ.

● وبعد هزيمة غزوة الفيل، وهلاك أبرهة الحبشي، انتفضت اليمن فتحررت، بقيادة سيف بن ذي يزن (٥١٦ - ٥٧٤م) لتعود الصلات والتجارات بين العرب - في شمال الجزيرة ووسطها وجنوبها - ولتتعدّد أواصر التحالف والتضامن بين حكومة مكة - بقيادة عبد المطلب بن هاشم (٥٠٠ - ٥٧٩م) - وبين حكومة الاستقلال في اليمن.

● وفي ذات العام الذي انبثق فيه نور الوحي بكتاب الإسلام القرآن الكريم (٦١٠م)، يحدث أول انتصار للعرب على الفرس في تاريخ هذا الصراع، في «يوم ذي قار».

● فلما قامت للإسلام دولة، بالهجرة من مكة إلى المدينة (سنة ١ هـ - ٦٢٢م)، واضطرت قوى الشرك العربي، في صلح الحديبية (سنة ٦ هـ - ٦٢٨م) إلى الاعتراف بأمة الإسلام ودولته، ودانت القبائل العربية بالولاء للدين الجديد والدولة الفتية؛ توجهت سياسة الإسلام إلى الدائرة الخارجية، بالدعوة أولاً إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، فاتحة بذلك طريق تحرير الشرق من استعباد الفرس والروم؛ فخرجت رسل رسول الله ﷺ (سنة ٧ هـ - ٦٢٨م) بكتبه ورسائله إلى كسرى فارس، وقيصر الروم، ونجاشي الحبشة، ومقوقس مصر، وإلى رؤساء وأقيال وأمراء القبائل والعشائر والولايات في الأطراف.

ويلفت النظر ذلك المغزى ذي الدلالة الكبرى في تعامل رسول الله ﷺ مع مصر، منذ اللحظة الأولى التي أرسل فيها رسوله حاطب بن أبي بلتعة (٣٥ ق.هـ - ٣٠ هـ - ٥٧٦ - ٦٥٠م) بكتابه إلى مصر؛ فالإسلام لم يعترف بأن مصر هي شأن من شئون الروم البيزنطيين - رغم خضوعها لاستعمارهم منذ ما يقرب من ألف عام، فكما أرسل الرسول ﷺ في شأن الروم، كتبه إلى «هرقل» (٦١٠ - ٦٤١م) - وحمله الصحابي دحية الكلبي (٤٥ هـ - ٦٦٥م)؛ تحدث الرسول إلى المصريين في شأنهم، ولم يعتبرهم شأنًا رومياً بيزنطياً؛ فأرسل رسوله حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، «عظيم القبط» - والذي كان يقيم في «منفيس»، العاصمة التاريخية والوطنية للمصريين. ولم يذهب حاطب، في شأن مصر، إلى العاصمة البيزنطية للاستعمار الروماني بمصر - الإسكندرية - ولا إلى «سيرس»، بطرك الروم. ويلفت النظر إلى هذه الحقيقة التاريخية، ذات المغزى التحرري الهام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) عندما يقول: «إن النظرية القائلة بأن «المقوقس» هو «سيرس» بطريق الإسكندرية، نظرية خاطئة. إن المقوقس قبطي، وهو حاكم منفيس»^(١).

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ١ ص ٨٣٣ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

فمنذ اللحظة الأولى، رفضت السياسة الخارجية للدولة الإسلامية الاعتراف بالأمر الواقع، الذي تمثل في هيمنة قطبي نظام عالم ذلك التاريخ - الفرس والروم - على الشرق والشرقيين.

ولم يكن خطاب الرسول ﷺ في شأن مصر والمصريين، مع «المقوقس» عظيم القبط، وفي العاصمة الوطنية لمصر - وليس مع «هرقل» في «القسطنطينية»، ولا مع بطرك الروم في «الإسكندرية» - لم يكن ذلك الموقف في السياسة الخارجية الإسلامية استثناء، وإنما كان موقفاً عاماً، رافضاً الاعتراف باستعمار الفرس والروم للشرق والشرقيين؛ فكانت رسل رسول الله ﷺ يحملون كتبه إلى الولاة والقادة العرب - من الغساسنة والمناذرة - الخاضعين لسيطرة الروم والفرس حتى ذلك التاريخ.. فلإلى ملك «البلقاء» بالشام الحارث بن أبي شمر الغساني، ذهب شجاع بن وهب الأسدي، كما ذهب سليط بن عميرة إلى العلاء بن الحضرمي، ملك البحرين^(١). وإلى غيرهم من القادة الوطنيين؛ فتوجه الخطاب الإسلامي في الشؤون الشرقية إلى الشعوب المستعمرة وقياداتها الوطنية، وليس إلى المستعمرين من الفرس والروم.

ذهب حاطب بن أبي بلتعة إلى مصر الشعب القبطي المتهور دينياً وقومياً ولغوياً وثقافياً وسياسياً وحضارياً، حاملاً رسالة رسول الإسلام إلى «المقوقس» عظيم القبط، طالباً إليه الدخول في الإسلام، لا باعتبار الإسلام ناسخاً لنصرانية عيسى ابن مريم - عليه السلام - وإنما باعتباره الشريعة المكملية لدين الله الواحد، منذ آدم إلى محمد بن عبد الله، فهي دعوة للمصريين كي يكملوا، بالإسلام، الدين الذي عرفوه منذ نبي الله إدريس، عليه السلام.

ولقد شهد الحوار الذي دار بين المقوقس وبين حاطب على هذا الأفق الرفيع والواسع والعميق في فهم صحابة رسول الله ﷺ لمكانة الإسلام ومقامه من حقيقة تمام الدين واكتمال رسالات السماء إلى

(١) رفاعة الطهطاوي (الأعمال الكاملة) ج ٣ ص ٥٦٣، ٥٦٤.
دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة.
طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

الإنسان ﴿..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعَمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..﴾ (المائدة: ٣) ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ولقد دار الحوار بين «المقوقس» وبين الصحابي حاطب بن أبي بلتعة، على النحو الذي يكشف كيف صنعت مدرسة النبوة الإسلامية من البدو الأميين علماء وفلاسفة في الدين والتاريخ!. ولقد بدأ المقوقس هذا الحوار بالتحدي وبالتساؤل الاستنكاري، المتسائل عن صدق نبوة محمد وسلطان نبوته؛ فقال لحاطب: «- ما منعه - (أي الرسول) - إن كان نبياً - أن يدعو عليَّ فيسلط عليَّ؟!».

(فكان جواب حاطب): - ما منع عيسى ابن مريم أن يدعو علي من أبي عليه أن يفعل به ويفعل!.

.. (فوجم المقوقس ساعة - أي فترة - ثم استعداد إجابة حاطب؛ فأعادها عليه حاطب. فسكت المقوقس).

وهنا استأنف حاطب الحوار، فقال للمقوقس:

= إنه قد كان قبلك رجل - (يشير إلى فرعون موسى) - زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به - (أي من الذين استخفهم فأطاعوه)، ثم انتقم منه، فأعتبر بغيرك، ولا يُعتبر بك.

وإن لك ديناً - (أي النصرانية) - لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي الله به فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد. وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به!«.

وبعد هذا الخطاب، الذي بلغ قمة العمق في الوعي بالتاريخ، وفي فلسفة وحدة الدين الإلهي، الذي اكتمل بالإسلام. قرأ حاطب بن أبي بلتعة كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس، عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام. فأَسْلِمَ تَسْلِمَ يُوْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مرتين. فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْقَبْطِ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤) (آل عمران: ٦٤)»^(١).

فمنذ ذلك التاريخ (سنة ٧هـ سنة ٦٢٨) بدأ الإسلام أفراداً وتمييز شعوب الشرق بالخطاب عن قوى الهيمنة والاستعمار - الفرس والروم - إعلاناً صريحاً عن نزوع الإسلام إلى تحرير هذه الشعوب من ذلك الاستعمار.

ولذلك فلم يكن غريباً ذلك الاستقبال الحسن الذي لقيه حاطب بن أبي بلتعة لدى عظيم القبط «المقوقس»، في العاصمة الوطنية لمصر «منفيس». وعندما قفل عائداً إلى المدينة، بعث معه المقوقس «بهدايا مصرية» إلى رسول الله ﷺ، جاريتان من كرام بنات مصر: «مارية» وأختها «سيرين» وثياب مصرية، من صناعة المصريين وعسل من مدينة «بنها» وراحتان - بغلة وحمار -.

وكما كان لرسالة الرسول ﷺ هذا القبول الحسن عند المقوقس؛ فلقد كان لهذه الهدايا المصرية قبولاً حسناً ومكانة متميزة عند رسول الله؛ «فمأرية»، قد شرفها بأن أصبحت أم ولده إبراهيم، الذي أشار اسمه إلى المصاهرة القديمة بين مصر وأبي الأنبياء الخليل إبراهيم - عليه السلام - تلك المصاهرة التي أثمرت أمة العرب العدنانيين. وها هو النبي العربي، المجدد لملة إبراهيم والمحيي - في السعي بين الصفا والمروة - لمناسك هاجر المصرية، يجدد العلاقة بمصر فيصاهر المصريين، لتجتمع لمصر مع العرب الذمة والصهر والنسب جميعاً. أما «سيرين» فلقد أصبحت أم ولد شاعر الإسلام، المؤيد بروح القدس، حسان بن ثابت - أم ولده عبدالرحمن - . وتتحدث المأثورات النبوية عن دعاء الرسول ﷺ بالبركة لهذا العسل الذي أهدته إليه مصر وعن مكانة الراحلتين - البغلة «دُلْدُل»، والحمار

(١) ابن عبد الحكم (فتوح مصر وأخبارها) ص ٤٦. طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م. ومجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص ٧٢، ٧٣. تحقيق د. محمد حميد الله. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

«يعفور» - لديه ﷺ، وكيف كانا «أحب دوابه إليه» أما الثياب التي أهدتها إليه مصر، فكان يتزين بها، ثم أوصى أن يُكفَّن في بعضها عندما يلقي الله. فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قلنا: يا رسول الله، فيم نكفِّنك؟ قال: «في ثيابي هذه، في ثياب مصر»^(١).

وهكذا دار الزمن دورته، فجدد الاقتران بين مصر وبين خاتم الأنبياء ذلك الاقتران الذي سبق وحدث بينها وبين أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل، عليهم السلام.

وإذا كان الاصطفاء والتكريم مألوفًا في الناس وفي الأوقات والأزمنة؛ فإنه وارد أيضًا في الأمكنة والبلاد والأقطار وهذا ما التفت إليه أعلام المؤرخين الذين كتبوا عن «فضائل مصر»؛ فلقد تتبعوا احتفاء القرآن الكريم بها. عندما ورد ذكرها فيه في نحو من خمسة وعشرين موضعًا، «منها ما هو بصريح اللفظ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير فأما صريح اللفظ، فمنه قوله تعالى:

١- ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأْتُمْ﴾ (البقرة: ٦١).

٢- وقوله ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، يخبر عن فرعون: (الزخرف: ٥١).

٣- وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ (يونس: ٨٧).

٤- وقوله - عز وجل - مخبرًا عن نبيه يوسف، عليه السلام: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٩).

٥- ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١).

وأما ما دلت عليه القرائن، فمنه قوله عز وجل:

٧- ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ﴾ (يونس: ٩٣).

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص ٥٢.

٨- وقوله عز وجل: ﴿وَأَوْثَنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (٥٠).
(المؤمنون: ٥٠).

قال ابن عباس (٣ ق.هـ - ٦٨ هـ - ٦١٩ - ٦٨٧ م) وسعيد بن المسيب (١٣ - ٩٤ هـ - ٦٣٤ - ٧١٣ م) ووهب بن منبه (٣٤ - ١١٤ هـ - ٦٥٤ - ٧٣٢ م) وغيرهم: هي مصر.

٩- ﴿وَأَوْثَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ (الشعراء: ٥٧-٥٨) أي أخرجنا بني إسرائيل من مصر.

١٠- وقوله تعالى: ﴿وَأَوْثَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ (الأعراف: ١٣٧). يعني مصر.

١١- وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنَكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْثَنَهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴿٢٨﴾ (الدخان: ٢٥-٢٨).

١٢- وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ (القصص: ٥-٦).

١٣- وقوله - عز وجل - مخبراً عن نبيه موسى ، عليه السلام: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ٢١) أي لا تتردوا إلى مصر.

١٤- وقوله - عز وجل - مخبراً عن فرعون: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ (غافر: ٢٩).

١٥- وقوله - عز وجل -: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٧).

١٦- وقوله - تعالى - مخبراً عن فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ (الأعراف: ١٢٧) يعني أرض مصر.

١٧- وقوله - تعالى - مخبراً عن نبيه يوسف، عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ (يوسف: ٥٥).

١٨- وقوله تعالى: ﴿وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ يُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ (يوسف: ٥٦).

١٩- وقوله تعالى، مخبراً عن بني إسرائيل: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (يونس: ٨٨).

٢٠- وقوله تعالى، مخبراً عن نبيه موسى - عليه السلام -: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩).

٢١- وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر: ٢٦).

٢٢- وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ (القصص: ٢٠).

٢٣- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِبَعًا﴾ (القصص: ٤).

٢٤- وقوله - تعالى - مخبراً عن أكبر أبناء يعقوب عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَبْجَحَ الْأَرْضَ﴾ (يوسف: ٨٠) يعني مصر.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ (القصص: ١٩)^(١).

هكذا شرف الله - سبحانه وتعالى - مصر الكنانة عندما ذكرها في قرآنه الكريم في خمسة وعشرين موضعاً. وعلى هذا الدرب جاء فضلها في سنة رسول الله ﷺ بتلك المأثورات النبوية التي جمعها علماء التاريخ.

(١) ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة) ج ١ ص ٢٧، ٢٨. طبعة دار الكتب المصرية.

لقد تنبأ رسول الله ﷺ بفتح الإسلام لمصر وبدورها الرائد والمتميز - كدرة في جبين دار الإسلام - في الجهاد لنصرة الإسلام وأمته وحضارته؛ فأوصى، لذلك، بأهلها، وقال: «إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا»^(١).

وعن مسلم بن يسار، أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالقبط خيرًا، فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم». وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أن رسول الله ﷺ قال: «الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله إنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله تعالى». وعنه ﷺ أنه قال:

«إذا أفتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنودًا كثيرًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض».

فقال له أبو بكر الصديق: ولم ذلك يا رسول الله؟ فقال: «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة ما كادهم أحد إلا كفاهم الله مؤنته»^(٢).

وعن أبي ذر الغفاري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنكم ستفتحون مصر - وهي أرض يُسمَّى فيها القيراط - فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا»^(٣).

هكذا توجه الإسلام إلى أهل مصر بالخطاب المستقل، إعلانًا عن عزم دولته على تحريرها من القهر السياسي والديني والحضاري الذي أوقعه بها الإغريق والرومان. وهكذا كرمها القرآن الكريم، ونبي الإسلام، والسنة النبوية الشريفة، عندما بوأتها هذه المكانة المتميزة والعالية في مصادر الإسلام.

وإذا كانت هذه هي مكانة مصر في الرؤية الإسلامية، وهذه هي قسمة البعد التحريري في السياسة الإسلامية نحو الشعب القبطي - المصري -؛ فلقد كان الروم البيزنطيون يرون في مصر الحصن الحافظ لاستعمارهم، والذي إذا سقط انحسر سلطانهم الاستعماري عن الشرق كله، ذلك السلطان الذي دام نحوًا من عشرة قرون (٣٣٢ ق.م ٦٤٢ م) ففي المواجهة التي احتدمت بين الروم، بقيادة

(١) رواه الطبراني في الكبير.

(٢) (فتوح مصر وأخبارها) ص ٣،

٤. و(النجوم الزاهرة) ج ١

ص ٢٩.

(٣) رواه مسلم والإمام أحمد.

«هرقل» (٦١٠ - ٦٤١ م)، وبين دولة الخلافة الراشدة، على عهد عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ ٦٣٤ - ٦٤٤ م)، شحن الرومان مصر بالجيوش والعدة والعتاد، وخاصة بعد أن انحسر سلطانهم وزالت دولتهم عن بلاد الشام حتى لقد عبّر «هرقل» عن هذا الموقف صراحة عندما قال: «لئن ظهرت العرب على الإسكندرية فإن في ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وأعياد الروم بالإسكندرية..»^(١).

وحتى نعرف حدة الصراع، وشراسة القتال، وطول المحاصرات، وقوة التحصينات، وشدة المعاناة التي اكتنفت الفتح الإسلامي لمصر - مع ملاحظة وقوف الشعب المصري مع جيش عمرو بن العاص، وتركز الصراع والقتال ضد حاميات الروم وحصونها - حتى نعرف مبلغ ذلك، يكفي أن نتذكر أن الفتح الإسلامي للعراق والخليج وفارس، وأيضاً لكل أنحاء الشام، بما في ذلك المعارك الكبرى في «القادسية» و«أجنادين» و«اليرموك» تمت كلها في عام واحد (١٥ هـ ٦٣٦ م)، بينما استغرق فتح مصر وحدها نحواً من أربع سنوات! بل إن فتح مدينة الإسكندرية وحدها قد استلزم حصاراً فرضه المسلمون عليها دام أربعة عشر شهراً، منها خمسة أشهر في حياة هرقل وتسعة بعد وفاته فلقد كانت مصر درة الإمبراطورية البيزنطية، ومقر الجيوش الرومانية الحارسة لهيمنة بيزنطة على الشرق - من الشام وحتى شمالي إفريقيا.

ويبدو أن هذه الإمكانيات العسكرية التي ركزها الرومان في مصر، كانت هي سبب التردد الذي حدث لفكر وموقف عمر بن الخطاب في اتخاذ قرار فتحها عندما اقترحه عليه وحسنه له وأغراه به عمرو بن العاص (٥٠ ق. هـ ٤٣ هـ ٥٧٤ - ٦٦٤ م) في سنة (١٨ هـ ٦٣٩ م)، عندما التقيا في الشام. فلقد استخار عمر في ذلك واستشار، واستمرت شوره حتى بعد أن تحرك عمرو بن العاص بجيشه متوجهاً نحو مصر. وكان مما قاله عثمان بن عفان لعمر، في هذه المشاورات: «يا أمير المؤمنين، إن عمراً لجريء، وفيه إقدام، وحب للإمارة، فأخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا..»^(٢).. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بالرجوع عن خطة الفتح إذا

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص ٦٨.

(٢) المصدر السابق. ص ٥٧، ٥٨.

لم يكن قد دخل مصر، وبالمضي إلى الفتح إذا كان قد دخلها وجاء في كتابه: «أما بعد فإنك سرت إلى مصر ومن معك، وبها جموع الروم، وإنما معك نفر يسير فإن لم تكن قد بلغت مصر فارجع وإن أدركك كتابي وقد دخلتها فامض، واعلم أني مُدِّك..»^(١).. فكان فتح عمرو بن العاص لكتاب أمير المؤمنين بعد تجاوزه لـ «رفح» وقبل دخول «العريش». ذلك أن مشيئة الله كانت قد نفذت، وحن الحين كي يجسدها على الأرض وفي ميادين الفتوحات التحريرية، أولئك الذين استخلفهم الله للانتقال بالإنسانية إلى طور جديد.

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَهُمْ عَلَى الْمَنَافِعِ عَنِ اللَّهِ عَلَيْهِ الْأُمُورُ﴾ (الحج: ٤١).

وإذا كانت وقائع هذا الفتح المبين، ومراحله وتواريخه قد اختلفت في بعضها بعض روايات المؤرخين؛ فإن التحقيق لهذه الروايات والمقارنة بينها يحكي لنا حقائق سير خطوات هذا الحدث التاريخي العظيم.

● كان عمرو بن العاص قد أسهم إسهاماً متميزاً في قيادة فتوحات الشام وهو الذي تولى قيادة المعركة في «أجنادين»، عندما كانت قيادة جيش الروم لداهيتهم «أرطبون» - «الذي كان أدهى الروم وأبعدها غوراً، وأنكاها فعلاً» - كما يقول الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ - ٨٣٩ - ٩٢٣ م) - ولقد قدم المسلمون عمرو بن العاص باعتباره الكفاء لأرطبون الروم. وقال عمر بن الخطاب: «لقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظر عمّ تنفرج!» ولقد انفرجت المعركة عن انتصار المسلمين بقيادة عمرو بن العاص على أرطبون الروم!^(٢).

● وحدث في سنة (١٨ هـ - ٦٣٩ م) طاعون بأرض الشام - بضیعة «عمواس»، على ستة أميال من القدس - مات فيه كثيرون، منهم قائد الجيش الإسلامي الفاتح للشام، أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح (٤٠ ق. هـ - ١٨ هـ - ٥٨٤ - ٦٣٩ م) ونائبه معاذ بن جبل (٢٠ ق. هـ - ١٨ هـ - ٦٠٣ - ٦٣٩ م) فأصبحت قيادة جيش المسلمين

(١) المصدر السابق. ص ٥٧.

(٢) الطبري (تاريخ الرسل والملوك)

ج ١ ص ٦٠٥ - ٦٠٧. تحقيق:

محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة

دار المعارف. القاهرة.

في الشام وعمرو بن العاص وسار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من المدينة إلى الشام، ونزل بـ«الجابية» - وهي قرية من أعمال دمشق - وقسم موارث موتى الطاعون وفي لقائه مع عمرو بن العاص، شاوره عمرو في فتح مصر، وحسنه له، وأغراه به فوافق عمر، على أن تمتد المشورة إلى ما بعد عودته للمدينة - وفيها كبار الصحابة - وعلى أن يظل القرار النهائي معلقًا بنتائج الشورى وبدخول الجيش الفاتح إلى الديار المصرية.

وعاد عمر إلى المدينة في ذي القعدة سنة ١٨ هـ - ديسمبر سنة ٦٣٩ م في الوقت الذي سار فيه عمرو بن العاص على رأس جيش الفتح - المكون من ٤,٠٠٠ (أربعة آلاف) مقاتل قاصدًا فتح مصر. فلما وطئت أقدام الجيش الإسلامي أرض مصر، أدركهم رسول أمير المؤمنين، بكتابه الذي يدعوهم إلى الرجوع إن لم يكونوا قد دخلوا أرضها وكانت قراءة الكتاب وهم على أرض مصر، في قرية بين «رفح» و«العريش» فمضوا إلى فتحهم على بركة الله.

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص ٥٨.

● وفي مدينة «العريش» حل أول عيد للأضحى على المسلمين في أرض مصر، فصلى عمرو بن العاص وجنوده أول صلاة للعيد على أرض الكنانة، وضحى عن أصحابه بكبش، في ١٠ ذي الحجة سنة ١٨ هـ - ١٣ ديسمبر سنة ٦٣٩ م - أي قبل أربعة عشر قرنًا من التاريخ الذي نكتب فيه هذه الصفحات.

● وفي مدينة «الفرما» حدث أول قتال شديد بين الجيش الإسلامي وبين قوات الروم، وفي هذه المعركة دام القتال نحوًا من شهر! (١).

● وبعد هزيمة الروم في «الفرما» انحرف الجيش الإسلامي عن الطريق الساحلي، متجهًا إلى الجنوب الغربي، وعند «بلبيس» وقعت ثانية وقائع القتال الشديد بينه وبين الرومان. ودامت هذه المعركة، هي الأخرى، نحوًا من شهر! انتصر فيه المسلمون على الرومان.

● وكان الاضطهاد الروماني لأقباط مصر قد ألجأ أسقف القبط ورأس الكنيسة المصرية «بنيامين» - أو «أبوميامين» (٣٩ هـ - ٦٥٩ م) - إلى الهرب في الصحراء «فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم: أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم

قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو بن العاص». حدث ذلك منذ بدايات معارك الفتح الإسلامي لمصر، حتى «يقال: إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا، يومئذ، لعمرو أعرافاً...»^(١).

● وأدرك عمرو بن العاص - رغم انتصاره في «الفرما» و«بليس» - ومن خلال شراسة المقاومة، وطول مدة القتال - شهر في «الفرما» وشهر في «بليس» - اختلال التوازن بينه وبين الأعداء.. فجنوده ٤,٠٠٠ يواجهون ١٢٠,٠٠٠ يحتمون في الحصون والمدن والقلاع ووافر العدة والعتاد؛ فكتب إلى عمر بن الخطاب يطلب المدد الذي وعده به، فجاءه المدد، وهو محاصر «لحصن بابليون»، قرب العاصمة المصرية «منفيس» أمده أمير المؤمنين عمر بـ ٤,٠٠٠ مقاتل، وعلى رأس كل ألف منهم واحد من أبطال صحابة رسول الله ﷺ، قدّر عمر بن الخطاب أنه يزن ألفاً من المقاتلين؛ فأصبح عدد الجيش الفاتح ٨,٠٠٠ ووزنه ١٢,٠٠٠ من المقاتلين! ومع هذا المدد جاء كتاب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص، يقول له فيه: «إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف - الزبير بن العوام (٢٨ ق. هـ - ٣٦ هـ - ٥٩٦ - ٦٥٦ م) والمقداد بن عمرو بن الأسود (٣٧ ق. هـ - ٣٣ هـ - ٥٨٧ - ٦٥٣ م) وعبادة ابن الصامت (٣٨ ق. هـ - ٣٤ هـ - ٥٨٦ - ٦٥٤ م) ومسلمة بن مخلد (١ - ٦٢ هـ - ٦٢٢ - ٦٨٢ م) - (وقيل: خارجة بن حذافة (٤٠ هـ - ٦٦٠ م)...) - ولا يُغلب اثنا عشر ألفاً من قلة...»^(٢).

وبالثمانية آلاف، والصحابة الأربعة - الذين يعدلون أربعة آلاف - حاصر المسلمون «حصن بابليون» سبعة أشهر، حتى اقتحموه وافتتحوه عنوة وقتلاً في نهاية المطاف! وكان ذلك في يوم الجمعة ٢ محرم سنة ٢٠ هـ - ٢٢ ديسمبر سنة ٦٤٠ م. وبذلك أصبحت العاصمة الوطنية لأقباط مصر - «منفيس» - محررة من استعمار الروم البيزنطيين.

● وأثناء حصار المسلمين لـ «حصن بابليون» - الذي كان يقود الروم دفاعاً عنه، قائدهم «الأعرج» - حدثت اتصالات ودارت مفاوضات بين «المقوقس»، عظيم القبط ووالي «منفيس»، وبين

(١) المصدر السابق. ص ٥٨، ٥٩.

(٢) المصدر السابق. ص ٦١.

رسل عمرو بن العاص. حدث ذلك في آخر شعبان سنة ١٩ هـ ٢٤ أغسطس سنة ٦٤٠م، عندما تحدث المقوقس إلى قيس بن سعد (٦٠ هـ - ٦٨ م) مندوب عمرو بن العاص. وبعد هذه المحادثة، أرسل المقوقس رسالة من عنده لاستطلاع حال المسلمين في معسكرهم «فلما جاءت رسل المقوقس إليه، قال لهم: كيف رأيتموهم؟

- قالوا: رأينا قومًا. الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نَهْمَة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضعهم ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم.

فقال - عند ذلك - المقوقس: والذي يُخَلِّفُ به! لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إن أمكنهم الأرض وقوا على الخروج من موضعهم..»^(١).

لقد تميّز موقف القبط - الذي عبر عنه المقوقس - وذلك تبعًا لتمييز موقف أسقف القبط «أبو ميامين» - تميز موقف القبط عن موقف المستعمرين الروم؛ فسعى المقوقس إلى مصالحة الجيش الإسلامي الفاتح ودارت بينه وبين المسلمين مفاوضات - في «منفيس» - مثل المسلمين فيها وفد قاده الصحابي عبادة بن الصامت. وكان المقوقس، وهو يحاور عباد بن الصامت - ولهذا دلالاته ومغزاه - يتحدث عن الروم بضمير الغائب، فيقول لعبادة، محذرًا إياه من قوة الروم، والإمدادات الآتية إليهم - عبر البحر المتوسط -: «لقد توجه إلينا لقتالكم من جَمْع الروم ما لا يُحصى عدده وإننا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تطيقوهم، لضعفكم وقلتكم..»^(٢).

ولقد أفضت المفاوضات بين المقوقس، عظيم القبط - في «منفيس» - وبين رسل عمرو بن العاص، إلى صلح ناجز بين القبط - الذين تعاهد المقوقس باسمهم - وبين عمرو بن العاص، وإلى صلح آخر، غير ناجز، اقترحه المقوقس على الروم، وعلق إمضاءه على موافقة هرقل، قيصر الروم.

(١) المصدر السابق: ص ٦٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٦.

فأما صلح القبط - الناجز والنهائي - فلقد تم التعاقد عليه عندما اجتمعوا - عمرو بن العاص في نفر من المسلمين، والمقوقس في نفر من القبط - «واصلطحو على أن يُفرض على جميع من بمصر، أعلاها وأسفلها، من القبط ديناران ديناران من بلغ الحلم منهم، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا النساء شيء. وأن لهم أرضهم وأموالهم، لا يُعرض لهم في شيء منها. فشرط هذا على القبط خاصة»^(١).

وبذلك تم التعاقد على الصلح بين الجيش الفاتح وبين الشعب المصري، وقيادته الوطنية وهو التعاقد الذي عبر عن الموقف العملي للشعب من الجيش الفاتح، وهو موقف الترحيب والدعم والتأييد، الذي أعلن عنه الأسقف «أبوميامين» منذ معركة «الفرما» في شبه جزيرة سيناء.

أما «مشروع» الصلح بين المسلمين والروم، والذي تطوع المقوقس، عظيم القبط، فتفاوض حوله مع عمرو بن العاص؛ فلقد كان مجرد «مشروع» اتفقا على تعليق إنجازه وإمضائه على موافقة هرقل، قيصر الروم. وفي هذا «المشروع»: «شرط المقوقس للروم أن «يُخبروا، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا - (الصلح الذي عقده القبط) - أقام على ذلك، لازماً له، مفترضاً عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج، وعلى أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم، وإلا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه. وكتبوا بذلك - (الصلح) - كتاباً..»^(٢).

فلما كتب المقوقس إلى هرقل بن خبر ونص هذا الصلح المقترح على الروم؛ رفضه هرقل «وكتب إلى المقوقس يُبجّ رأيه، ويُعجّزه ويرد عليه ما فعل، ويقول في كتابه - (إلى المقوقس) -: إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يُحصى، فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا دفع الجزية إلى العرب واختاروهم علينا، فإن عندك بمصر من الروم بالإسكندرية ومن

(١) المصدر السابق: ص ٧٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٧٠-٧٣.

معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة فناهضهم القتال، ولا يكون لك رأي غير ذلك.

● وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتاباً إلى جماعة الروم.

● فأخبر المقوقس عمرو بن العاص بجواب ملك الروم، وطلب منه إدخاله ومن معه في الصلح، كالقبط - (أي إدخال من مع المقوقس من الروم، الذين اختاروا الصلح، في هذا الصلح الذي تم مع القبط) - وقال لعمرو بن العاص: «إنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم، ولم يأت من قبلهم نقض، وأنا متم لك على نفسي، والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم، وأما الروم فأنا منهم بري...»^(١).

هكذا تميز الموقف الإسلامي من القبط، الذين صالحوا وعاونوا وسالموا، عن الموقف من الروم، الذين اختاروا القتال.

وحتى القرى المصرية التي ساند أهلها الروم، وشاركوا في قتال الجيش الإسلامي - قرى «بلهيت» و«سُلطَيْس» و«أم دين» و«قرطسا» و«سَخا» و«الحيس» - في الطريق إلى الإسكندرية - حتى هذه القرى، عفا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن أهلها، وحرر أسراهم، وشملهم بالصلح الذي أبرمه الأقباط مع عمرو بن العاص^(٢).

● وفي الطريق إلى الإسكندرية، كان الرومان قد زرعوا الحصون والاستحكامات وشحنوها بالجنود والعتاد؛ فدارت العديد من المعارك بين الجيش الإسلامي الفاتح وبين هذه الحصون والقلاع والحاميات الرومانية.

حدث ذلك في «أم دُين» بالقرب من العاصمة المصرية وحصن بابليون.

وفي «سُلطَيْس» وهي من القرى المصرية القديمة حدث قتال شديد بين المسلمين والرومان.

وفي «قَرطسا» وهي من قرى مصر القديمة.

وفي «الحيس» وهي من كور وقرى الحوف الغربي.

(١) المصدر السابق: ص ٧١، ٧٢.

(٢) المصدر السابق: ص ٨٣، ٨٤.

وفي «سَخَا» وهي من المدن المصرية القديمة بدلتا النيل.
 وفي «بَلْهَيْت» - أو «بَلْهَيْت».
 وفي «كُوم شريك» - قرب الإسكندرية - دام القتال ثلاثة أيام.
 وفي «الكَرْيُون» - قرب الإسكندرية - استمر القتال بضعة عشر
 يوماً حتى لقد صلى المسلمون يومئذ صلاة الخوف؛ فانقسموا
 طائفتين، وصلى عمرو بن العاص بكل طائفة ركعة وسجدتين، بينما
 الطائفة الأخرى تخوض غمار القتال، وتؤمن صلاة المصلين!..^(١)
 كل هذا قد حدث، ومثله كثير - على طريق الجيش الفاتح ،
 أثناء سيره من حصن بابليون إلى الإسكندرية بينما حصون الروم
 وقلاعهم منتشرة في غير ذلك من الأقاليم والأنحاء، شرقاً وغرباً
 وشمالاً وجنوباً.
 لقد أدخل صلح المقوقس مع عمرو بن العاص مصر الشعب
 في إطار الدولة الإسلامية.
 وفتحت هزيمة الرومان في حصن بابليون الطريق أمام الجيش
 الفاتح نحو الإسكندرية، التي هي المعركة الفاصلة بين المسلمين -
 ومعهم القبط - وبين المستعمرين الرومان.

(٢) المصدر السابق: ص ٧٣، ٧٤.

فتح الإسكندرية

وبعد هزيمة الروم في «حصن بابليون» - يوم الجمعة ٢ محرم سنة ٢٠ هـ - ٢٢ ديسمبر سنة ٦٤٠ م - تحرك الجيش الإسلامي لحصار الإسكندرية، عاصمة الاستعمار الروماني في مصر، وفرض عليها الحصار - إلا من ناحية البحر - أربعة عشر شهراً. وكما يروي التاريخ عن الإسكندرية وحصارها؛ فلقد «تحصّن بها الروم، وكانت عليهم حصون مبنية لا تُرام، حصن دون حصن. فنزل المسلمون ما بين «حلوّة» إلى «قصر فارس» إلى ما وراء ذلك، ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة...»^(١).

ورغم مناعة الحصون والمائة ألف رومي الذين اعتصموا في هذه الحصون والمدد الذي يأتيهم من البحر؛ استطاع المسلمون اقتحام الإسكندرية، وتقويض الاستعمار الذي بدأ مع فتح الإسكندر الأكبر، قبل نحو ألف عام (سنة ٣٣٢ ق.م)؛ فلقد فتح الله عليهم هذه المدينة الحصينة يوم الجمعة أول جمادى الثانية سنة ٢٠ هـ - ١٨ مايو سنة ٦٤١ م.

(١) المصدر السابق: ص ٧٤.

ولقد كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه هو الذي حدد للجيش الفاتح تاريخ المعركة وتوقيت الفتوح، وشروط الانتصار. والمؤرخون يتحدثون عن ذلك، فيقولون: إنه «لما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر، كتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر. إنكم تُقاتلون منذ سنتين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبّ عدوكم. وإن الله - تبارك وتعالى - لا ينصر قوماً إلا بصدق نيّاتهم.

وقد كنتُ وجّهتُ إليك أربعة نفر، وأعلمتُك أن الرجل منهم مقام ألف رجل، على ما كنتُ أعرف، إلا أن يكونوا غيرهم ما غير غيرهم.

فإذا أتاك كتابي هذا، فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومرا الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة، وليُعجّج الناسُ إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم».

فلما أتى عمرو بن العاص كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، جمع الناس وقرأ عليهم الكتاب، ثم دعا أولئك النفر - (الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد) - فقدمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله - عز وجل - ويسألوه النصر، ففعلوا، ففتح الله عليهم..»^(١).

هكذا فتحت الإسكندرية، وافتحتها دالت دولة الروم، وطويت صفحة استعمارهم للشرق، بعد أن دامت قرابة الألف عام. ذلك أن الإسكندرية كانت هي حصن الاستعمار البيزنطي، الذي قهر مصر في السياسة والدين والثقافة والحضارة، فجعل منها «فراعًا حضاريًا» سعت إلى ملئه بحضارة الإسلام، تلك التي ورثت وأحيت كل الموارث الحضارية التي سبقت الإسلام والتي حرر فتحها الإسلامي القبط من الاضطهاد المأساوي الذي أنزله بهم الروم البيزنطيون.

لقد تحققت، بفتح الإسكندرية، نبوءة «هرقل» - قيصر الروم - تلك التي قال فيها: «لئن ظهرت العرب على الإسكندرية، فإن في ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية» وبعد فتحها تمت فتوحات سائر الأقاليم المصرية.

فبعد أن أسس عمرو بن العاص مسجده - وهو أول مسجد بني في القارة الإفريقية - (سنة ٢١ هـ سنة ٦٤٢ م) - واختط من حوله خطط أولى المدن الإسلامية في أفريقيا - مدينة القسطنطينية التي جعلها امتدادًا وضاحية للعاصمة الوطنية المصرية التاريخية «مفيس» - بل وسماها «مصر» - رمزًا لتعبير الفتح الإسلامي وعاصمتها عن تحرير مصر، وليس عن القهر الذي رمزت إليه العواصم الاستعمارية «أواريس» الهكسوس، و«إسكندرية» الإسكندر المقدوني؛ بعد ذلك قاد المقداد بن الأسود الجيش الذي فتح «دمياط» (سنة ٢١ هـ ٦٤٢ م).

وفي العام التالي (سنة ٢٢ هـ ٦٤٢ م) قاد عمرو بن العاص الجيش الذي فتح به «برقة - إنطابلوس»، وهي الحد الغربي للديار المصرية.

(١) المصدر السابق: ص ٧٩.

وبذلك تمت فتوحات الإسلام لمصر، تلك التي استغرقت من الحصار والقتال أربع سنوات. فلقد صلى المسلمون - وراء عمرو بن العاص - صلاة عيد الأضحى بالعريش في العاشر من ذي الحجة سنة ١٨هـ - ١٣ ديسمبر سنة ٦٣٩م وكان تمام الفتح - بقيادة عمرو - لـ «برقة - انطابلوس» سنة ٢٢هـ - سنة ٦٤٢م وهي مدة غير مسبوقة، في طولها، بتاريخ الفتوحات الإسلامية؛ لبلد كان الروم قد علقوا عليه كل الآمال، وعلق عليه الإسلام والمسلمون الكثير والكثير من الآمال!

ويكفي أن نعلم أن أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب، الذي أهمه اتخاذ قرار فتح مصر أكثر مما حدث له مع قرارات الفتوحات الكبرى؛ قد استقبل بشارة فتح مصر، وسقوط قلاع الروم في الإسكندرية كما لم يستقبل بشارة فتح من الفتوح، على كثرة وعظمة ما شهد عهده من الفتوح.

ولقد كان حامل بشارة الفتح إلى المدينة واحداً من أبطال الفتوحات الإسلامية، الصحابي معاوية بن حديج (٥٢ هـ - ٦٧٢م) - والراوي عن رسول الله ﷺ، حديث: عُذُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا^(١) - فوصل إلى مسجد المدينة ساعة الظهر، وظناً منه أن أمير المؤمنين قائل قيلولة الظهر، أثر الانتظار بالمسجد إلى صلاة العصر - وما دري أن عمر يحرقه القلق والشوق إلى أخبار الفتح الذي أبطأ به الزمان - حتى لقد وجّه الجواري والعلماء لترقب القادمين من الأسفار، علّ أن يكون فيهم من يحمل من مصر الأخبار.

ولندع معاوية بن حديج يروي لنا كيف استقبل عمر بن الخطاب بشارة الفتح العظيم، الذي دخلت به مصر في دين الله، والذي كان عيد ميلاد إسلامها! يقول معاوية:

«بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية؛ فقلت لعمر:

- ألا تكتب له؟.

- فقال عمرو: وما أصنع بالكتاب؟! ألسن رجلاً عربياً، تُبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت؟!.

(١) رواه الإمام أحمد. وانظر: ابن الأثير (أسد الغابة في معرفة الصحابة) - ترجمة معاوية بن حديج - طبعة دار الشعب. القاهرة.

فقدمت المدينة في الظهيرة، فأنختُ راحتي بباب المسجد، ثم دخلت المسجد. فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب، فرأتني شاحبًا، علي ثياب السفر، فأتتني فقالت:
- من أنت؟

- قال: فقلت: أنا معاوية بن حديج، رسول عمرو بن العاص.

فانصرف عني - (إلى منزل عمر) - ثم أقبلت تشتد - (مسرعة) - أسمع حفيف إزارها على ساقيتها، حتى دنت مني فقالت:
- قم، فأجب، أمير المؤمنين يدعوك.

فتبعته، فلما دخلت، فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى، فقال:
- ما عندك؟

- فقلت: خير، يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية! فخرج معي إلى المسجد، فقال للمؤذن:
- أذن في الناس: الصلاة جامعة.

فاجتمع الناس، ثم قال لي:
- قم، فأخبر أصحابك!

فقمْتُ فأخبرتهم، ثم صلي، ودخل منزله، واستقبل القبلة فدعا بدعوات، ثم جلس، فقال:

- يا جارية، هل من طعام؟
فأتت بخبز وزيت، فقال:
- كُلْ.

فأكلتُ على حياء!

- ثم قال: يا جارية، هل من تمر؟
فأتت بتمر في طبق، فقال:
- كُلْ.

فأكلتُ على حياء!

- ثم قال: ماذا قُلْتَ، يا معاوية، حين أتيت المسجد؟
- قال: قلتُ: أمير المؤمنين قائل.

- قال: بئس ما ظننت! لئن نمْتُ النهار لأضيعنَّ الرعية، ولئن نمْتُ الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟!»^(١).

هكذا استقبل عمر بن الخطاب، وعاصمة الدولة الإسلامية، بشارة الفتح العظيم، الذي دخلت به مصر في دين الإسلام فأذن المؤذن: الصلاة جامعة. فلما اجتمع الناس، صلى الجميع وسجدوا جميعاً - في مسجد النبوة - شكراً لله، سبحانه وتعالى الذي أدال دولة الروم، بعد أن أدال دولة الفرس، فتحررت شعوب الشرق من استبداد واستعباد وهيمنة «نظام» عالم ذلك التاريخ!

أما الروم، فإنهم لم يجعلوا هزيمتهم في الإسكندرية - يوم الجمعة أول جمادى الثانية سنة ٢٠ هـ ١٨ مايو سنة ٦٤١ م - نهاية أحلامهم في استعمار مصر والشرق فنقضوا العهد الذي عاهدوه عقب الهزيمة، وتآمروا مع من بقي منهم بالإسكندرية، واقتحموا المدينة من البحر في سنة ٢٥ هـ سنة ٦٤٦ م واحتلوها إلى أن عاد إليها عمرو بن العاص، فقاتلهم وهزمهم، وفتح الإسكندرية - الفتح الثاني - في تاريخ هذا الصراع.

ولقد كان هذا الغدر رومانياً خالصاً!.. وبعبارة المؤرخين: «وأما المقوقس فبقي ثابتاً على صلحه، ولم يغدر»^(٢).

بل ظلت القسطنطينية - عاصمة الدولة البيزنطية - تُجيش الجيوش لاستعادة الشرق من الدولة الإسلامية حتى تاريخ الفتح العثماني لها (٨٥٧ هـ ١٤٥٣ م) بقيادة السلطان محمد الفاتح (٨٢٢ هـ - ٨٨٦ هـ ١٤٢٩ - ١٤٨١ م).

فمصر كانت، وظلت، في «النظام الغربي» بوابة استعمار الغرب للشرق، وضمانة بقاء هذا الاستعمار ولذات السبب كانت أهميتها في الفتوحات التحريرية التي غير بها الإسلام قيادة الحضارة، ومقاصدها، فغير بذلك مجرى التاريخ.

لقد دخل الجيش الإسلامي إلى مصر، فميز فيها بين «الأمة المقهورة» التي أمنتها وحررها وأحيائها والتحم بها وبين «الدولة القاهرة» التي حاربها وهزمها وطوى صفحة استعمارها لمصر وقهرها للمصريين.

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص ٨١.
(٢) محمد مختار باشا المصري
(التوقيعات الإلهامية في مقارنة
التاريخ) - توقيعات سنة ٢٥ هـ.
دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة،
طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م.

ولعل في تمايز هذا الموقف الإسلامي - إزاء «الأمة» و«الدولة» - السر في ذلك الخلاف الشهير بين المؤرخين الذين كتبوا عن الفتح الإسلامي لمصر خلافهم حول فتح مصر، وهل كان «عُنوة» - بالقتال؟ أم كان «صلحًا» - دونها قتال - ؟؟^(١).

فمصر «الأمة.. والشعب» قد فتحت «صلحًا» وحتى قبل تعاقد المقوقس، عظيم القبط، مع عمرو بن العاص على هذا الصلح ومنذ أن عرف المصريون نبأ دخول عمرو بن العاص وجيش الإسلام إلى أرض سيناء؛ فالمصريون قد وقفوا يساندون الجيش الإسلامي الفاتح منذ معركة «الفرما» في شمالي سيناء ومنذ ذلك التاريخ، أيضًا، كان قرار وتوجيه بطرك مصر «أبو ميامين» - وهو منفي وهارب في الصحراء -.

أما «مصر» الدولة البيزنطية، فإنها هي التي «فتحت - بل وقُهرت - عنوة وقتالًا».. بل وقتالًا شرسًا، استغرق من الجيش الباسل، الذي ضم جمهرة من الأبطال، صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم وأرضاهم، أربع سنوات؛ فكان أطول «فتوح العُنوة» في تاريخ فتوحات الإسلام!.

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص ٨٤ - ٩٠.

الإحياء الإسلامي لمصر..

والإحياء المصري للإسلام

لم يكن الإحياء الإسلامي لمصر مقصوراً على الذين أسلموا من أهلها دون سواهم من شعبها فلقد كان الإسلام - كما مثلته الشريعة الخاتمة - هو «اللينة» المتممة لمكارم الأخلاق الدينية - كل الأخلاق الدينية - ومن ثم، فإنه قد استهدف إحياء كل مكارم الأخلاق الدينية لدى جميع أبناء الشرائع والرسالات السابوية التي سبقت شريعة الإسلام المحمدية.

وكان الإسلام هو الشريعة الخاتمة، التي تحيي ما لم يتجاوزته التطور وتصحح ما أصابه التحريف وتحقق ما حدث الاختلاف فيه، في كل شرائع الساء.

وكان الإسلام هو الدين الذي لا يكتمل إيمان المؤمنين به إلا إذا آمنوا بكل الرسل والرسالات، والأنبياء والنبوات، والكتب التي سبق وأوحى بها الله - سبحانه وتعالى - على مر تاريخ الرسالات الدينية.

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

وكان الإسلام هو الدين الذي يعلم الناس أن تعدد البشر في الشرائع واختلافهم في الملل هو السنة الإلهية والقانون الديني الذي لا تبديل له ولا تحويل.

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتٰكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ (٤٨) (المائدة: ٤٨) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفينَ﴾ (١١٨) (هود: ١١٨-١١٩).

ولذلك؛ كان الإحياء الإسلامي إحياء لمطلق الدين الإلهي الواحد، الذي تعددت فيه الملل والشرائع والرسالات والنبوات، وكان الإحياء الإسلامي، في مصر، تصحيحاً وتجديداً واستئنافاً ترتفع به مجدداً راية التوحيد، التي رفعتها مصر منذ رسالة نبي الله

إدريس - عليه السلام - في فجر الاجتماع البشري؛ فالإسلام كمال
وتمام للدين الإلهي الواحد، وليس نقصاً ونقياً لما سبقه من الدين!
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾
(المائدة: ٤٨).

ولأن أهل مصر قد عانوا الشدائد القاسية والمحن القاتلة في
ظل القهر الروماني؛ فلقد رأوا في دولة الإسلام الحرية والتحرير
المنقذين لهم من الهلاك، الأمر الذي جعل الإسلام لهم: الحياة
والإحياء.

ونحن عندما نتأمل حوار «حاطب بن أبي بلعنة» - الحامل
لكتاب رسول الله ﷺ إلى شعب مصر - مع «المقوقس» عظيم القبط؛
نطالع هذه الرؤية الإسلامية لعلاقة الإسلام بما سبق شريعته من
شرائع السماء. فحاطب - الصحابي المسلم - يتحدث إلى المقوقس -
النصراني القبطي - فيقول له:

- «وإن لك ديناً لن تدعه إلا ما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي
الله به فقد ما سواه» - (أي أن الإسلام شامل لحقيقة النصرانية، وزائد
عليها، ومتجاوز لها) -، وما بشاره موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى
بمحمد. وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى
الإنجيل - (أي أن الإسلام مصدق لما بين يديه من كتاب، تصديق
الإنجيل لما قبله من التوراة) - ولسنا ننهك عن دين المسيح، ولكننا
نأمرك به».

فالفتح الإسلامي لمصر، لم يكن بالنسبة لأجدادنا أقباط مصر،
أمراً بالتخلي عن دين المسيح، وإنما كان دعوة للالتزام بحقيقة دين
المسيح!. ومن هنا فلم يكن غريباً أن يمثل هذا الفتح الإسلامي
الإحياء الحقيقي لنصرانية الأقباط المصريين!.

لقد أعاد إليهم، لأول مرة في تاريخ النصرانية المصرية حرية
العقيدة، وحرية الاختيار، وبعد أن كانت النصرانية عقيدة
مضطهدة ومطاردة وهاربة، تقدم الضحايا والشهداء على امتداد

القرون الستة التي سبقت الفتح الإسلامي؛ تمتعت لأول مرة في تاريخها، بالحرية والأمان.

وبعد أن كانت كنائسها وأديرتها مغتصبةً من قِبَل مسيحية الدولة الرومانية الاستعمارية - «مسيحية بولس» - ومذهبها الملكاني - حرر الفتح الإسلامي هذه الكنائس الوطنية وأعادها إلى الأقباط، فكانت المرة الأولى التي يحرر فيها أهل دين مقدسات دين آخر، لا ليحوزوها لأنفسهم ودينهم؛ وإنما ليعيدوها إلى أبناء الدين المغاير!.

فكان الإسلام - بذلك - هو الذي بنى كنائس مصر القبطية من جديد!.

وبعد أن كان البطرك القبطي «بنيامين» - أو «أبوميامين» - (٣٩هـ - ٦٥٩م) - وهو رمز النصرانية المصرية - ومذهبها اليعقوبي - هارباً في الصحاري ثلاثة عشر عاماً.. منذ أن طلبه هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) قيصر الروم؛ ليقتله، فلما هرب من هرقل، أحرق هرقل أخاه «ميناً» - عداوة لليعاقبة، كما يقول المقرئزي (٧٦٦ - ٨٤٥هـ - ١٣٦٥ - ١٤٤١م)؛ جاء الفتح الإسلامي، فأرسل عمرو بن العاص إلى «بنيامين» بعهد الأمان و«كتب عمرو «لبنيامين» بطرق اليعاقبة أماناً، في سنة عشرين من الهجرة، فسره ذلك، وقدم على عمرو، وجلس على كرسي بطركيته بعد ما غاب عنه ثلاث عشرة سنة فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر ودياراتها كلها، وانفردوا بها دون الملكية..»^(١).

وهكذا كرّس الفتح الإسلامي لمصر إحياء وازدهار وبقاء أعرق الكنائس الوطنية للنصرانية على الإطلاق وظل ذلك شاهداً صدق على ما مثله الإسلام في مصر من الإحياء الديني، لمطلق الدين وليس فقط لدين وشريعة الإسلام.

وكما استوعبت الحضارة الإسلامية علوم مدرسة الإسكندرية، التي بدأت ترجماتها العربية منذ القرن الهجري الأول، بتوجيه وقيادة ومشاركة الأمير الأموي خالد بن يزيد (٩٠هـ - ٧٠٨م)؛ فلقد استوعبت هذه الحضارة الإسلامية كذلك ما سبقها من الموارد الدينية، والقيم الإيمانية، بل وغدا أبناء هذه الموارد صُنَاعاً

(١) المقرئزي (الخطوط) ج ٣ ص ٥٣٤،
٥٣٥. طبعة دار التحرير. القاهرة.

وشركاء في هذه الحضارة الجديدة، التي مثلت بالنسبة للجميع جامع الانتماء الحضاري الواحد، الذي استوعب الموروث، ووظفه في هذا البناء الحضاري الجديد.

فقبل الفتح الإسلامي لمصر، كانت النصرانية المصرية مجرد «ثقافة مقهورة»، محرومة من صناعة الحضارة الخاصة بها، فلا «سياسة» ولا «دولة» ولا «اقتصاد» ولا «اجتماع». من سمات الحضارة وقسماتها - لأن «دنيا مصر ودولتها» - التي منها ولها وبها تتبلور الحضارة - كانت «هلينية - رومانية - استعمارية». فلما جاء الفتح الإسلامي، تحررت مصر وتحررت نصرانيتها، وغدت - في ظل الإسلام - مشاركة في صنع الحضارة العربية الإسلامية، على قدم المساواة مع المسلمين.

أما على الجبهة الإسلامية - في البشر والعلوم - فإن دور مصر في الإحياء الإسلامي والإبداع الحضاري والثراء العلمي والتجديد الفكري والتميز في المنهاج؛ قد جسده آلاف المجلدات. وفي مقامنا هذا تكفي إشارات إلى معالم هي أشبه بالعناوين:

● إن مصر قد وصلت «توحيد» خاتمة الرسالات السماوية - الإسلام - بتوحيد رسالة نبي الله إدريس - التي عاصرت آدم أبي البشر، وأولى الرسالات السماوية التي عرف التاريخ لها وطنًا تواصلت فيه ومضات هذا التوحيد - فكأنها قد أمسكت «خيوط» التوحيد من طرفيه!.

● وهي قد وصلت خاتمة الحضارات ذات الصبغة الإلهية - الحضارة الإسلامية - بأعرق الحضارات الإنسانية - الحضارة المصرية القديمة - والتي بدأت، هي الأخرى، ذات صبغة دينية، عندما جاءت تعاليم علومها المدنية علمًا إلهيًا بث في المصريين نبيُّ الله إدريس، عليه السلام.

● ومصر، قد وقفت في مقدمة شعوب الإسلام التي مثلت وتمثل الوسطية الإسلامية - التي هي خصيصة الإسلام وأمته، كما أرادها الله، سبحانه وتعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

● ففي الاختلافات المذهبية: اختارت مذهب جمهور الأمة، مذهب أهل السنة والجماعة، مع حب لآل البيت - آل بيت رسول الله ﷺ - الذين ظلموا - فشاعت في أسمائها أسماؤهم، وقامت على أرضها مزاراتهم - دون أن يشوب هذا الحب غلو الإفراط عند الذين تعصبوا لآل البيت، ولا شوائب غلو التفريط الذي أصاب من ناصبوها العداء - بل لقد ظل المسلمون المصريون يضعون شهداء أقباطها - في الصراع مع الرومان - ومزاراتهم في نفس مصاف الشهداء والقديسين والأولياء المسلمين!.

● وفي المذاهب «الكلامية» - مذاهب أصول الدين - احتضنت مصر مذهب جمهور الأمة - أشعرية أهل السنة والجماعة - الذي حاول الجمع والتأليف بين عناصر الحق والعدل في مذاهب الإسلاميين، وكان هذا هو حال جامعاتها العلمية - وفي مقدمتها الأزهر الشريف - تلك التي احتضنت كل تراث الأمة وجميع مذاهبها، وتعاملت مع خلافاتها بأمانة ومسئولية وأفق لا يعرف تحيزات المتعصبين.

● وفي المذاهب الفقهية - مذاهب علم الفروع - اختارت مصر مذاهب أئمة أهل السنة والجماعة، وذلك دون أن تقف عند مذهب واحد منها، حتى لا تنمو فيها بذور التعصب المذهبي. لقد توزع جمهورها بين «المالكية» و«الشافعية»، وهما أكثر المذاهب الفقهية جمعًا - بالوسطية - بين «الرأي» و«الأثر» - مع دوائر، بين أهل مصر، «للأحناف» «أهل الرأي»، و«الحنابلة»، «أهل الأثر»، تعلن عن الوجود لهم والقبول بهم.

● وفي السياسة والدولة، سرعان ما أصبحت مصر الإسلامية - بعد فترة نقاهتها من الاضطهاد الروماني وقهره الحضاري - سرعان ما أصبحت «ولاية قائدة» و«إمارة رائدة» ثم غدت «كرسي خلافة» و«عرش سلطنة» أغلب قرون تاريخ الإسلام، وذلك بدءًا من الدولة الطولونية (٢٢٦ - ٢٩٢ هـ - ٨٧٩ - ٩٠٥ م) فالدولة الإخشيدية (٣٣٣ - ٣٥٧ هـ - ٩٣٥ - ٩٦٩ م) فالدولة

الفاطمية (٢٩٧ - ٥٦٧ هـ - ٩٠٩ - ١١٧١ م) فالدولة الأيوبية (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ - ١١٧١ - ١٢٥٠ م) فالدولة المملوكية (٦٤٨ - ٩٩٢ هـ - ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)؛ فعلى امتداد نحو سبعة قرون كانت مصر - في الدولة والسياسة - مقر الخلافة والسلطنة الجامعة لأغلب أقطار وأقاليم دار الإسلام.

● وفي مواجهة التحديات الشرسة التي اقتحمت ديار الإسلام - وأغلب تاريخنا تحديات! - حققت مصر في الممارسة والتطبيق نبوءة رسول الله ﷺ، التي أوصى فيها باتخاذ الجند الإسلامي فيها؛ لأنهم في رباط إلى يوم القيامة.. «اتخذوا فيها جنداً كثيفاً، فذلك الجند خير أجناد الأرض؛ لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة».

صدقت مصر وحقت - في الممارسة والتطبيق وعبر تاريخ الإسلام - هذه النبوءة النبوية؛ فكانت هي التي جيشت الجيوش وعبأت الجهود وجهزت الكتائب وقادت الجهاد وتقدمت الصفوف لمقاتلة الغزوة الصليبية (٤٨٩ - ٦٩٠ هـ - ١٠٩٦ - ١٢٩١ م) والتحالف «الصليبي - المغولي» (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) - في «عين جالوت».

والالتفاف والتطويق البرتغالي للعالم الإسلامي - على شواطئ الهند - (١٩١٠ هـ - ١٥٠٤ م) والحملة الفرنسية (١٢١٣ - ١٢١٦ هـ - ١٧٩٨ - ١٨٠١ م) وحملة «فريزر» الإنجليزية (١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م) والاحتلال الإنجليزي (١٢٩٩ - ١٣٧٥ هـ - ١٨٨٢ - ١٩٥٦ م) بل وقادت وموّلت وساعدت حركات التحرر الوطني ضد كل ألوان وقوى الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام، وما حول وطن العروبة وعالم الإسلام، ولا تزال حاملة لهذه المسؤولية القيادية في مواجهة تحدي «الشراكة الإمبريالية - الصهيونية»، منذ قيام هذه «الشراكة» وحتى هذه اللحظات.

● أما في الإبداع الحضاري فلقد روت مصر ثمرات الإسلام من جذور إبداعها الحضاري القديم فكان لها الإسهام المتميز في مختلف علوم الحضارة الإسلامية، الشرعية منها والمدنية، علوم المقاصد وعلوم الأدوات والآليات: في علوم القرآن الكريم

وعلوم السنة النبوية الشريفة وعلوم العربية وآدابها وفنون القول والتثقيف للنفس الإنسانية وعلوم الفقه الأكبر وأصول الدين وعلوم الفقه وأصوله وعلوم السيرة والملاحم والقصص والتاريخ وعلوم البناء والتشييد وزخرفة الواقع وزينة المكان وعلوم الحرب والجهاد والقتال وعلوم السلم وتنمية العمران في الزراعة والصناعة والتجارة والحرف التي تواصلت فيها إبداعات الشعب عبر العصور والقرون.. إلى آخر كل ميادين الإبداع الحضاري، التي تتزين بها النفس والبيئة، ويصلح بها «المعاش» و«المعاد»!.

● بل إن مصر، التي لم تعرف التسامح الديني في تاريخها السابق على الإسلام - عندما استعرت نيران الاضطهاد الديني بين أتباع «أمون» وأنصار «إخناتون»، وطاردت الوثنية المصرية طلائع النصرانية الوافدة على أرضها، وتواصل الاضطهاد من الوثنية الرومانية - بل ومن نصرانيتها «الملكانية» ضد النصرانية القبطية «اليقوبية» - حتى لقد سالت الدماء، وتوالت مواكب الشهداء، وهُدمت المعابد والكنائس، وأحرقت المكتبات، وسُحِل الكهنة والفلاسفة...! إن مصر هذه - التي اكتوت بنيران هذا التعصب الديني وذلك الاضطهاد المذهبي - سرعان ما كشف الإسلام عن معدنها الأصيل وخلقها النبيل، وذلك عندما تدينَت بالإسلام، فعلمت وتعلمت أن سنة الله في الخلق هي التعددية في الملل والديانات، والاختلاف في المذاهب والفلسفات، فاستبدلت الساحة بضيق الصدر والأفق، واستعاضت بالتعايش بين الديانات عن غرائز الواحدية المذهبية والأثرة الدينية، فغدت في العالمين مضرب الأمثال في القبول بالآخر الديني والتعايش السلمي مع المخالفين.

حدث ذلك لمصر، منذ أن وعت معنى الكلمات التي قالها حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى «المقوقس» - حاطب بن أبي بلعنة - والتي خاطب بها «المقوقس» فقال:

- «ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به»!.

وزاد وعيها بهذا الموقف الإسلامي الجديد، عندما قرأت وحفظت ورتلت في صلواتها قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥) ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَيْتُكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (المائدة: ٤٨) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨، ١١٩).

لقد بدأت مصر، بذلك طوراً جديداً، أحيأ فيه الإسلام سماحتها، فغدت سماحتها هذه من فضائل عالم الإسلام.

كل هذا صنعه الفتح الإسلامي بمصر وصنعت مصر للإحيأ الإسلامي فكان هذا الفتح- الذي نطل على ذكره ال-١٤٠٠ (أربعة عشر قرناً على تمامه) - عيد ميلاد مصر الإسلامية، وإيذاناً بعودة كنانة الله في أرضه إلى موقعها القائد ومكانتها الرائدة في صناعة الحضارة، وقهر التحديات، والتصدي للاستكبار والاستغلال، وتحرير ملكات وطاقات الإنسان واسترخاص كل غالٍ وبذل كل نفيس في سبيل حمل هذه الأمانات.

وإذا كان هذا الفتح الإسلامي لمصر (سنة ٢٠هـ - ٦٤٠م) قد أعاد إلى مصر عافيتها الحضارية، فغدت القائدة والرائدة في سائر ميادين الفتح، عبر تاريخ الإسلام، وإذا كانت قد صنعت ذلك بالإسلام، وله ولأمته وحضارته وعالمه؛ فإن أفضل احتفال بذكرى هذا الفتح العظيم هو الذي يسدد خطوات مصر على هذا الطريق.. طريق العزة بالإسلام وتحقيق العزة للإسلام والمسلمين.

بل إننا مدعوون إلى تحقيق وتحرير التواريخ التي شهدت فيها مصر رسالات وصحوات وومضات التوحيد الديني، عبر تاريخها الطويل - منذ رسالة إدريس - عليه السلام - وحتى رسالة محمد، خاتم الأنبياء - عليه الصلاة والسلام -.. وعبر رسالة موسى وهارون والمسيح عيسى ابن مريم - عليهم الصلاة والسلام -..

إننا مدعوون إلى تحقيق وتحرير تواريخ استقبال مصر لأنوار

التوحيد الإلهي والشرائع السماوية؛ لتكون هذه التواريخ أعيادًا قومية يشارك في إحيائها كل المتدينين بديانات التوحيد، في هذا البلد الآمن، الذي حمل أهله هذه الأمانة عبر هذا التاريخ الطويل والعريق.

فلنحتفل بعيد ميلاد مصر الإسلامية الذي يقبل علينا مرور أربعة عشر قرنًا على ذكره، ولنحتفل بعيد ميلاد النصرانية في مصر - منذ القرن الميلادي الأول -.

ولنحتفل بنصر الله توحيد موسى وهارون - عليهما السلام - على استبداد الفرعونية واستغلال القارونية، ولتكن أعياد التوحيد الإلهي هي الأعياد الموحدة لكل المصريين بل ولكل العرب والمسلمين^(١).

(١) تلك هي الدراسة التي كتبناها ونشرناها مع مقدم ذكرى مرور أربعة عشر قرنًا على الفتح الإسلامي لمصر سنة ١٤١٨ هـ والتي حملت عنوان: [عندما دخلت مصر في دين الله].